يهود العراق

وعدنا في احد اعداد المقتطف الاغر (مارس ١٩١٨) ان نأتي بمقالة عن تاريخ يهود العراق . وكنا بمدئذٍ ندرس هذا البحث ونجمع الفوائد التاريخية التي يمز الوقوع عليها لتشتتها بين ثنايا الصحف القديمة حتى تمكنا من تأليف كتاب في هذا الموضوع دعوناهُ « نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق » ولم يزل هذا المؤلف مخطوطاً وقد عقدنا النية على طبعه متى تأتى لنا ذلك . الا اننا وَدَدنا ان نطرف القراء الكرام بمقالة استلتناها منهُ فالامل معقود على انها تقع منهم موقع الاستحسان

١ الكتاب المقدس وابراهيم الخليل

اذا كانت بلاد فلسطين لليهود ارض ميعادهم وقبلة آمالهم ومحط رحالهم بعد تيههم فالعراق منشأ اباتهم وارض سبيهم . وقد ورد ذكر بين النهرين وبابل وآثور وبلادمادي وشوشن ودجلة والفرات في سفر التكوين والملوك واشعيا ودانيال واستير ويونان والمزامير وفي التلمود الذي هو مخزن تفاسيرهم الدينية وكنز آدابهم القومية

تصفح سفر التكوين ترَ ان ابراهيم الخليل ظعن من وطنه ومسقط رأسه اور الكلدانيين مع اهل بيتهِ وتوجه الى ارض كنعان وكانت الغاية من هجرته الهرب من معهد الكفر . فقادر اور كاسديم او اور الكلدانيين في سنة ١٩٢١ قبل المسيح وكانت هذه المدينة في ارض بابل على ساحل الفرات حيث تشاهد اليوم اطلال المقيَّر او المكيَّر (١) كما يلفظها اعراب البادية وهي قريبة من ملتقى الرافدين . وكانت مقاماً خطيراً للتجارة البرية والنهرية

(١) اطلال واقعة في جنوبي غربي ناصرية المنتفج (المنتفك) وتبعد عنها نحو عشرة اميال وتستغرق بقعة من الارض تقدر مساحتها بـ ١٠٠٠ × ١٢٠٠ يرد وتكاد تكون اهليلجية الشكل ويحيط بها سور ترابي . وقد نقب قسماً منها المستر تيلر سنة ١٨٥٤ — ١٨٥٥ فاكتشف فيها هيكل الاله القمر الذي اتخذه سكان المدينة حامياً لمدينتهم . ومما هو قمين بالتنبيه ان بعض الكتبة الذين كتبوا عن بابل واعتمدوا على مؤلفات الافرنج عربوا اسم هذه الانقاض وفقاً للحروف الافرنجية Mugayyar او Al Moggar تارة بالمقاور وطوراً بالمغير وصحيحها المقير وقد عرفها العرب في تواريخهم بذي قار ووقعتها مشهورة عندهم

وكان المهاجرون يصبون الى مسقط راسهم ويخطبون ازواجاً لاولادهم من بنات بين النهرين وكانوا يمدونهن اشرف نسباً واعرق حسباً من بنات يهود كنعان

٢ فترة تاريخية وسبي بابل

مرّت القرون ومضى نحو ١٢٠٠ سنة ولم يرد ذكر بلاد بين النهرين وبابل في توراة موسى حتى حمل شلمناصر ملك آثور حملة شعواء على هوشع ملك اسرائيل فعقد هذا الملك محالفة مع ملك مصر سوا دفاعاً عن حياض مملكته الاّ ان التحالف لم يجده نفعاً بل دخل الجيش الآثوري بلاده سنة ٧٢١ ق.م وجلا الى بلاده ٢٧٢٨٠ اسرائيليًا اسكنهم مدن حلح وكوزان في وادي الخابور ومدن ماذي

وفي سنة ٧٠٢ ق.م حمل الملك سنحاريب على مملكة يهوذا واسر من سكانها ٢٠٠١٥٠ نفساً وعقد معهُ حزقيا ملكهم معاهدة

وفي عهد أسرحدون اسر جيش البابليين منسى ملك اليهود وارسلوهُ الى بابل مكبلاً بالقيود وذلك سنة ٦٧٢ ق.م

وفي سنة ٦٠٤ق . م انتصب على اريكة بابل نبوكد نصر الملك المقدام ومنذ تبوأ منصة الملك طمع في مدّ سيطرتهِ على الدول وتدويخ الشعوب . خالف يوياقيم بن يوشيا ملك اليهود الاّ ان يوياقيم لم يثبت على عهدهِ بل تقلب في سياستهِ مع نبوكدنصر فجهز عليهِ جيشاً لهاماً وشد البابليون الحصار على اورشليم وتولى الملك الكلداني شؤون الحصار بنفسهِ فدخل المدينة المقدسة ظافراً . فاسر الكلدان يهوياكين خليفة يوياقيم وامه ونساءهُ وحاشيتهُ واشراف مملكتهِ ورجال حربهِ والصناع والاقياد وبعثوا بهم الى بابل

وصلت قوافل الاسرى بابل وشاهدوا هناك من ابناء جلدتهم جالية من اعقاب اسرى شلمناصر وسنحاريب واسرحدون . فتعانقوا معانقة اعز الاخوان وتعاونوا في منتاهم على حفظ كيانهم وصيانة تقاليدهم من كل مسّ تلك التقاليد التي ينزلها الشرقيون في حياتهم القومية منزلة غراء ويحلها الساميون في اخلاقهم محل القلب من الجسد

كل امة ينضب معين قوتها ويدب فيها دبيب الضعف يلتات عليها امرها

ويستعجم تدبير شؤونها ولا تعرف من تحالف من الامم القوية لتعتصم بها وتستند اليها في عجزها . هذا كان شأن المملكة اليهودية في اخريات ايامها وقفت وقفة حائر بين الدولة المصرية والدولة البابلية . فقرر اخيراً صدقيا ملك اليهود ان يدفع لواء العصيان ويحارب البابليين ولكن سرعان ما انقض عليه الكلدان فلم تجده نفعاً نجدات المصريين فانتهت تلك الحرب بنصر الكلدان نصراً مبيناً . فاغلظ نبوكدنصر معاملة صدقيا ملك اليهود وامر بقتل اولاده واشراف مملكته على مرأى منهُ . ونفي الى بابل وذلك سنة ٥٨٦ ق.م

تفرق القوم بعد هذه النكبة تحت كل كوكب حتى ضربت الامثال بتفرقهم فقيل لكل قوم انبت حبلهم وانتشر عقدهم كأنهم شتات اليهود بعد السبي . فادرت مواكب الاسرى المؤلفة من صفوة القوم بلاد ابائهم وهم يدنون الى معاهدهم ويودعون عاصمتهم ويكتحلون لآخر مرة برؤية هيكلهم فقطعوا المسافة التي تفصل بين فلسطين وبابل وحطوا رحالهم في بلاد بين النهرين وتفرقوا في بابل وبلاد ماذي وآثور

لم يعد البابليون اليهود عبيداً في منفاهم ولم يثقلوا وطأتهم عليهم بل كانوا يحسبونهم غرباء . وكانت شرائع البلاد تجيز لهم ان يتسنموا المراتب الرفيعة في المملكة . ومما لا ريب فيه انهم اشتغلوا في المباني التي اقامها نبوكدنصر في بابل وجعلوا العاصمة بطرق صنائعهم . فابتاعت الجالية اليهودية في بابل اراضي وزرعتها وغرست فيها اشجاراً وانشأت حدائق واشترت حقولاً وحرثتها وأسست قرى على ضفاف الانهر فسكنتها وبنت بيوتاً قوراء لجأت اليها . وكان لشيوخ اليهود في بابل نفوذ على قومهم كما كانت منزلتهم بين شعبهم في فلسطين . وتفرغ جماعة منهم للتجارة والصنائع والمهن المختلفة

٣ انتهاء الجلاء والسلالة الكيانية

كان اليهود في ارض منفاهم يعللون نفوسهم بانفراج الازمة ويتوقعون الخلاص من تلك النكبة التي فتت في عضدهم وكانت كتابات انبيائهم توطد رجاءهم واسفار اشعيا وحزقيال تكرر بشائر النجاة . ومما روج خلاص اسرائيل من الاسر ظواهر الانحلال التي ظهرت في بابل بسبب القلاقل والفتن التي ثارت في عهد

خلفاء نبوكدنصر فقام كورش على نبوناهيد ملك الكلدان وفتح بابل سنة ٥٣٨ ق . م . وكان دخول كورش بابل دخول منقذ فاظهر لسكانها من الولاء اجله ومن الحنو أرقه . فظهرت آنئذ للاسرى تباشير السلام من مضايق البلاء وبدأت فواتح الفرج من مغالق الاسر فعطف عليهم كورش واذن لهم ان يرجعوا الى وطنهم اورشليم مطمح آمالهم وان يبنوا الهيكل وارجع اليهم اواني الذهب والفضة التي سلبها نبوكدنصر من قدس اقدامهم . واقاض عليهم سجال عرفه واودع مهمة ولاية فلسطين الى زربابل احد احفاد يهويا كيم ولقبهُ بلقب بهاء ومعناهُ الحاكم بالفارسية

ولما حصل اليهود على أمنيتهم لم يرجع منهم الى فلسطين الاَّ القليل من الكثير فسافر اول مرة برعاية زربابل ٤٩٦٩٧ شخصاً وتبعهم غيرهم في قوافل عديدة وكان الظاعنون من رجال الكهنوت واللاويين وخدمة الهيكل ومن الذين لم يكن لهم زرع ولا ضرع ولا ملك ولا تجارة في بابل ومن الذين اغلقت في وجوههم سبل العيش واما رجال الاعمال فانهم اختاروا البقاء في بابل يدأبون في زيادة ثروتهم تشهد بذلك اسماء الموقعين عقود البيع والشراء في عهد داريوش وخلفائه

ومن حدسيات المؤرخين ان كورش امطر غيث جوده على اليهود مكافأة لهم عن مساندتهم الفرس في فتوح بابل وانهُ اراد ان ينشىء دولة جديدة في فلسطين تحت سيطرته تكون حدًّا فاصلاً بين الفرس والمصريين

ان اليهود الذين اختاروا السكنى في بابل وبلاد ماذي اصبحوا في رخاء من العيش في عهد خلفاء كورش لا بل حازوا المناصب الرفيعة في قصر الملك في شوشن . وحكاية استير الواردة في التوراة اكبر شاهد على صحة ما اقول

وفي سنة ٤٤٥ ق . م . ارسل ارتحشستا الاول نحميا بن حكليا الى اورشليم وزوَّدهُ بالاوامر النافذة الى العمال ليتم بناء المدينة

وفي سنة ٣٩٧ سافر من بابل عزرا بن سدايا كاتب شريعة اسرائيل ومعهُ ١٤٩٦ رجلاً و٣٨ لاويًّا و٢٢٠ عبداً . وكان عزرا المذكور مزوداً بالسلطة الملكية المخارقة العادة لاصلاح شؤون اليهود في فلسطين

٤ اليهود في عهد السلوقيين والارشغانيين

شاهد اليهود تقلب السلالات المالكة على هذا القطر تأتي الواحدة تلو

الاخرى وتدث الثانية عمران الاولى وقد شاهدوا فتوحات اسكندر الكبير وحكومة سلوقس وكانوا من الذين انتقلوا من بابل الى المدينة الجديدة التي بناها سلوقس — تلك المدينة التي كانت تبعد عن بابل ٦٣ ميلاً وتركب على شط دجلة. وكان يتدفق منها نور مدنية جديدة متصباً على انهار وجنات ارض شنعار القديمة. ولكن لم يطل امد الدولة السلوقية في العراق حتى قرضتها الدولة البرتية وجلس على اريكتها الارشقانيون سنة ١٣٠ ق.م. وكان اليهود في عهد الارشقانيين على جانب عظيم من الهناء وقد تساهلوا معهم كل التساهل. وفي سنة ٢٢٤ انقرض ملك الارشقانيين في العراق بقيام الساسانيين

٥ً الساسنيون واليهود

لم يكن مؤسس الدولة الساسانية الملك ارداشير من اصدقاء اليهود بل ضيق عليهم الخناق وامر باضطهادهم وسمح للمجوس بتعذيبهم والتنكيل بهم لانهم كانوا قد ساعدوا الفرتيين في حروبهم ولانهم يحاولون ان يتخلصوا من دفع الضرائب الا ان دور الاضطهاد لم يطل بل تمكن اليهود من ارضاء ملوكهم وتالوا زلفى أم الملك سابور ذي الاكتاف وكان اسمها افراهور من فسخرت نفوذها على ابنها الملك في اعلاء شأنهم

ومن الذين سعوا السعي الحسن في تمكين عرى الوئام بين الفرس واليهود مار صموئيل رئيس مدرسة نهردايا. وقد جامل اليهود الفرس واهدوا لهم الهدايا النفيسة واكلوا ما كلهم وقدموا لحماً لحياكلهم. وقد قال كراتز عن يهود بابل انهم كانوا مستقلين استقلالاً ادارياً ولم يظهر خضوعهم الى امراء البلاد الا بدفع الضرائب وكان لهم رئيس سياسي يدعونهُ امير المنفى يعد من اقطاب المملكة الفارسية ولهُ المقام الرابع بعد الملك. وقد كان اليهود يتعاطون التجارة والزراعة والمهن المختلفة كما تشهد بذلك اسماء ربانيهم التي وردت في التلمود منذ القرن الاول ق. م حتى القرن الخامس ب. م. فمنهم الصائغ والحائك والصباغ والدباغ والاسكافي والبنا الخ

٦ً كلمة عن اللغة العبرية في بابل

يذهب فريق من العلماء ان اليهود تركوا التكلم باللغة العبرية وجنحوا عن

اتخاذها لغة عامية يتفاهمون بها في احوالهم الاجتماعية منذ سبي بابل اي منذ القرن السادس قبل المسيح. فهذا الرأي لا يقبل الاَّ بتحفظ كثير ولكن مما لا ريب فيه ان العبرية الفصحى لم تبق لغة التأليف فقط بعد الجلاء بزمن طويل بل كان يتكلمها علية القوم واشرافهم كما انهم الفوا بها عدة كتب ادبية ودينية ومنها الفصول الممتعة المجموعة في سفر اشعيا من الفصل الاربعين الى الفصل السادس والستين وبعض المزامير. واضحت بابل لا بل المدن التي تحيط بهذه المدينة العظيمة حاضرة ثانية لتقاليد اليهود ولغتهم. وقد عظم شأن قطر بابل وزادت خطورتهُ في تاريخهم القومي بعد ان خرب الرومان اورشليم فاصبح آنئذٍ مقرهم ومقام آدابهم اللغوية . وقد ارتأى العلامة اوالد ان في بابل وضعت أُسس درس اللغة العبرية درساً علمياً منذ القرون المتوغلة في القدم ولا نخطئ المحزّة ان في هذه البلاد حفظت تقاليد اليهود بعد ان نكبت مرتين في اورشليم وكاد يتقلص ظلها من عاصمتهم

وقد اشتهرت مدارس اليهود الدينية في بابل نخص بالذكر منها مدرسة سدرا تلك المدرسة الطائرة الشهرة التي بقيت ثمانية قرون ينبوع علومهم الدينية ومصدر تفاسيرهم اليهودية. وجاء ذكر مدارس أُخرى منها مدرسة نهردايا ومحوزة وغيرهما. وفي بابل كتب تلمود بابل . وكان بودنا ان نتوسع في تاريخ الآداب العبرية في العراق الاَّ اننا نكتفي الآن بما اوردناهُ

٧ حال اليهود في عهد العباسيين

سارت الكتائب الاسلامية من بلاد العرب وتوجهت الى العراق بقيادة سعد بن ابي وقاص في عهد عمر بن الخطاب وفتحت الخورنق والحيرة والقادسية وبهمشير والايوان واسبانير وكل بلاد العراق ودكت معالم الفرس واستولى المسلمون على العراق. اما سكانهُ فمنهم من دان بالاسلام فسلم ومنهم من ادوا الجزية عن يد وهم صاغرون . ولما خط المسلمون الكوفة لم ينتقل اليها بادىء بدء أحد من اليهود بل بقوا في الحيرة مع النصارى . وقد وقف سنة ٧٧ هجرية الحجاج بن يوسف الثقفي على المنبر في الكوفة وقال « يا اهل الكوفة لا اعز الله من اراد بكم العز ولا نصر من اراد بكم النصر اخرجوا عنا لا تشهدوا معنا قتال عدونا نزلوا بالحيرة مع اليهود والنصارى ولا يقاتل معنا الاَّ من لم يشهد قتال عتاب

انتهى دور الفتوح في العراق وعقبهُ دور التخطيط والتعمير والعمران . ولما عمرت بغداد سنة ١٤٦ هجرية ٧٦٣ م تحلب اليها الناس من كل صقع للارتزاق والادب وكان بينهم المسلم والنصراني واليهودي وغيرهم . ولم تنفرد بغداد بهذا الامر بل كانت البصرة والكوفة في العهد العباسي الاول على هذا المنوال من تجمع اهل الملل والنحل على اختلاف مذاهبهم وتباين اعتقادهم . وقد كان معظم الخلفاء العباسيين على جانب عظيم من التساهل معهم واكثرهم تساهلاً المأمون فقد كان هذا الخليفة رؤوفاً برعاياه . الاّ ان المتوكل كان شديد الوطأة على اهل الذمة فاصدر امراً سنة ٢٣٥ = هجرية ٨٤٩ م ان يلبسوا لباساً يميزهم عن المسلمين ويركبوا سروجاً تختلف عن سروجهم . ولم يكن على جانب من الجفا مع اهل الذمة فقط بل اغلظ معاملتهُ مع اهل البيت

واشتهر كثيرون من اطباء اليهود في العراق وألفوا الكتب الطبية واستخرجوها من اليونانية . نخص بالذكر منهم فرات بن شحناثا خدم الحجاج وعيسى بن موسى العباسي وهو ولي العهد في ايام المنصور وكان يشاوره في كل اموره ويعجبهُ عقله . ومنهم الطيفوري وزكريا الطيفوري والطبيب ربن الطبري المنجم كان حكيماً طبيباً عالماً بالهندسة وانواع الرياضة وحلّ كتباً حكمية من لغة الى لغة وفاقه شهرة ابنه ابو الحسن علي بن سهل بن الطبري اسلم على يد المعتصم وهو معلم الرازي صناعة الطب ومن مؤلفاتهِ كتاب فردوس الحكمة وكتاب ارماه الحياة وكتاب تحفة الملوك وكتاب كناش الحضرة وكتاب منافع الاطعمة والاشربة والعقاقير وكتاب حفظ الصحة وكتاب في الحجامة وكتاب في ترتيب الاغذية . ومن مشاهير اطباء يهود العراق هبة الله بن ملكا ابو البركات اليهودي في اكثر عمرهِ المسلم في آخر امرهِ وكان في وسط المائة السادسة هجرية

وكان من اليهود منجمون في عهد العباسيين ومنهم ماشاالله وجد في زمن المنصور وعاش الى ايام المأمون وسند بن علي المنجم المأموني كان يهودياً فاسلم في عهد المأمون

ومن ادباء يهود العراق ابو عبيدة الشاعر المتوفى سنة ٢٠٩ هجرية (٨٢٤) وهو صاحب الكتاب المعروف بالمثالب . ومن مشاهيرهم هرون الكاهن ابن يوسف من احبار بغداد في القرن العاشر المسيح وكان مناظراً لسعيد الفيومي

ويظهر من اخبار الشعراء ان اليهود كانوا يتعاطون بيع الخمور في العراق . وقد جاء في ديوان ابي دلامة البيتان الآتيان قالهما في الخليفة المنصور عند ما اخذ الناس يلبسون القلانس الطوال المفرطة سنة ١٥٣ هجرية (٧٧٠ م)

وكنا نرجي من إمام زيادةً فزاد الامام المصطفى في القلانس
نراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

وقد جاء ذكر اليهود وبيعهم الخمر في مادة سورا وهي موضع في العراق من ارض بابل قريبة من الحلة المزيدية وفي شعر لابي جفنة القرشي قال :

وفتى يدير على من طرف لهُ خمراً تولد في العظام فتورا
ما زلت اشربها واسقي صاحبي حتى رأيت لسانهُ مكسورا
مما تخيرت التجار ببابل او ما تعتقه اليهود بسورا

وكان اليهود في العراق في عهد العباسيين يشتغلون بنقل البضائع في البر وهم التجار الراهدانية لا الراذانية كما ضبطهُ بعضهم . وكانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية . وكانوا يسافرون بين الاقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر وكان كثيرون من ابناء قومهم يتعاطون الصيرفة واشتهروا بها . وانتشروا في مدن العراق ودساكره قراه وطسوجه حتى عرفوا ببعض الامكنة كيهود هاشرى (وهي قرية دون تكريت) وعرفت بهم بعض الامكنة كقنطرة اليهود وطريق اليهود وغيرها من الامكنة والبقاع

ونال ابن علان اليهودي ضامن البصرة في عهد السلاجقة منزلة لم ينلها غيره من الذمة عند المسلمين وكان نظام الملك يحبهُ كثيراً وكان امره قد عظم جداً الى حدّ ان زوجته توفيت فمشى خلف جنازتها كل من في البصرة الا القاضي فاخذ السلطان منهُ مائة الف دينار فاستكثر عليهِ ارباب الحسد هذه النعمة وسعوا حتى قتلوهُ غرقاً سنة ٤٧٢ هجرية (١٠٧٩ م) فغرق عليهِ السلطان نظام الملك او انقطع عن الركوب ثلاثة ايام واغلق بابهُ

ستأتي البقية بغداد يوسف رزق الله غنيمة